إيكولوجية السرد في رواية « جبل حالية »
لإبراهيم مضواح الألمعي

بقلم الدكتورة

العنود بنت محمد بن عبدربه المطيري

دكتوراه الفلسفة في اللغة العربية وآدابها (تخصص الأدب)

جامعة الملك عبدالعزيز بجدة ـ المملكة العربية السعودية

المجلد السادس والعشرون للعام ٢٠٢٢م

الجزء الرابع (إصدار ديسمبر)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

إيكولوجية السرد في رواية ((جبل حالية))
لإبراهيم مضواح الألمعي

العنود بنت محمد بن عبدربه المطيري

دكتوراه الفلسفة في اللغة العربية وآدابها (تخصص الأدب) جامعة الملك عبدالعزيز بجدة ـ المملكة العربية السعودية .

البريد الإلكتروني : ElanoodElmetery@gmail.com

الملخص

تناولت الدراسة في هذا البحث " إيكولوجية السرد في رواية "جبل حالية" لإبراهيم مضواح الألمعي، انطلاقاً من المقاربة الإيكولوجية/البيئية، لأنها عنصراً فعالاً ومحركًا فيه؛ حيث كان الروائي مسكوناً بهاجس الطبيعة وجميع محتوياتها. وتقوم الدراسة على تتبع مظاهر الطبيعة في الرواية من خلال محورين: البيئة البيولوجية، والبيئة الصناعية.

ينطلق المحور الأول من علاقة الإنسان بالبيئة البيولوجية، وقد رصد الكاتب تلك العلاقة من خلال (الإنسان، والحيوان، والنبات) في ضوء ثنائية الإيجاب والسلب. أما المحور الثاني: فيتناول علاقة الإنسان بالبيئة الصناعية، وقد رصد الكاتب فيها عالَمَي: (القرية)، (المدينة) في ضوء ثنائية الجمال والقبح، واختُتم البحث بخاتمةٍ ضمَّت أبرز النتائج، المستقاة من واقع النص الروائي موضع الدراسة.

الكلمات المفتاحية : الإيكولوجية، البيئة، الإنسان، الطبيعة، التشوه .

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

The ecology of the narrative in the novel ((Mountain of the Present))

By Ibrahim Mudawah Al-Alami

Al-Anoud bint Muhammad bin Abd Rabbo Al-Mutairi

Doctor of Philosophy in Arabic language and literature (specializing in literature), King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia.

Email: ElanoodElmetery@gmail.com

Abstract

The study in this research dealt with the "ecology of the narrative in the novel "Jabal Halyya" by Ibrahim Mudawah Al-Alma'i, based on the ecological/environmental approach, because it is an active and motivating element in it; The novelist was obsessed with nature and all its contents. The study is based on tracing the manifestations of nature in the novel through two axes: the biological environment, and the industrial environment.

The first axis stems from the human relationship with the biological environment, and the writer monitored that relationship through (man, animal, and plant) in the light of the duality of positive and negative. The second axis: deals with the human relationship with the industrial environment, and the writer monitored in it two worlds: (the village) and (the city) in light of the duality of beauty and ugliness, and the research concluded with a conclusion that included the most prominent results, drawn from the reality of the narrative text under study.

Keywords: ecological, environment, human, nature, deformation.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تناولت الدراسة بحثًا بعنوان: " **النقد الإيكولوجي: قراءة في رواية "جبل حالية" لإبراهيم مضواح**". ويُعنى البحث بمظاهر النقد البيئي للبناء الروائي انطلاقاً من الطبيعة المميزة لهذا الجنس الأدبي؛ حيث إنَّ " كلَّ جنسٍ أدبيٍّ له طابع عام، وأسس يتوحد فيها، ويمتاز بها عما سواه؛ بحيث يفرض نفسه بهذه الخصائص على كلِّ كاتبٍ يعالج فيه موضوعه مهما كانت أصالته، أو بلغت مكانته في التجديد".[١] وقد فرضت الرواية نفسها على الساحة الأدبية، "وبلغت مجدَها وحضورَها حتى غلبت الشعر من حيث مقروئيتها "،[٢] حتى إنَّ هناك من أطلق عليها "بديوان العرب".[٣]

وتعود أسباب اختيار الموضوع إلى جِدته وحداثته، فالنقد البيئي من المناهج الحداثية التي تفتقر إلى الدراسات مقارنةً بغيرها من المناهج النقدية. أما عن اختيار الكاتب وروايته جبل حالية دون غيرها، فيعود إلى أنَّ إبراهيم الألمعي[٤]من أهمِّ الأقلام المبدعة التي تكتب الإبداع في أجناسه الأدبية

---

١ – ريم محمد طيب الحفوظي: **الدراما في الشعر –تقنيات الشكل ومسرحة القصيدة–للشاعر محمد مردان نموذجاً**، ط١، (دار الخليج للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤٣٩هـ)، ص ٢٠.

٢ – حسن النعمي : **الأدب العربي الحديث نشأته وتطوره**، ط٣، (خوارزم العلمية، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٤٠هـ)، ص٧٥.

٣ – المرجع السابق: ص ٧٥.

٤ – إبراهيم مضواح الألمعي: قاص سعودي وروائي وكاتب، ولد في عسير–السعودية، عمل في التدريس بمختلف مراحل التعليم العام منذ تخرجه، ثم عمل مشرفاً للإعلام التربوي بتعليم رجال ألمع، حاز على وسام وزارة التربية والتعليم للمعلم المتميز.انظر: ويكيبيديا/الموسوعة الحرة.

السردية كافة، في حين أن الرواية اهتمت بالبيئة اهتماماً منقطع النظير فكانت الإيكولوجية من أنسب المناهج التي يمكن تطبيقها على هذه الرواية لاستجلاء الأبعاد الإيكولوجية والوقوف عليه.

ومن الدراسات السابقة؛ دراسة مقدمة من الأستاذ المشارك الدكتور: عبدالرحمن المحسني، بعنوان: جماليات المكان في رواية "جبل حالية" لإبراهيم مضواح الألمعي، مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، العدد التاسع، مارس،٢٠٢١م.

وهذه الدراسة تنظر للرواية من ناحية فنية مستعينة بالمنهج السيميائي في دراسة عتبة العنوان، وعلاماتها اللغوية، وغير اللغوية المرتبطة بعنصر المكان، كما تتبعت جماليات المكان، ووظائفه، ومستوياته، وتقنياته.

وكما هو ملحوظ بأن هذه الدراسة قد تتقاطع مع دراستي فيما يتعلق بعنصر المكان، بيد أن دراستي تدرس الرواية من منظور إيكولوجي، فهي تبحث في علاقة الإنسان بالبيئة البيولوجية، والبيئة الصناعية من خلال الثنائيات التي اتخذها البحث. أما الدراسة السابقة فتهتم بالمنهج الفني والسيميائي.

ومن الدراسات أيضاً؛ مقالة مقدمة من الأستاذ الدكتور محمد أبو ملحة، بعنوان: **جبل حالية رواية الاقتحام**، الجزيرة الثقافية، العدد(١٣٦٠١)، الخميس ٧محرم١٤٣١هـ .

وهذه المقالة تنظر للرواية من ناحية فنية، حيث قامت الدراسة على نقاط رئيسة تتمثل في: السرد، الحبكة، الزمان والمكان، الشخصية، اللغة، الرؤية.

وحاول استنطاقها من واقع نص رواية جبل حالية. كما تعرض الناقد إلى المفارقات التي وجدت في الرواية.

ويقوم البحث على المنهج الإيكولوجي/ البيئي الذي يتيح لنا الوقوف على مظاهر الطبيعة، وكيفية توظيفها في النص الروائي. ومن المأمول أن تجيب الدراسة على التساؤل الآتي: ما أهم عناصر الطبيعة التي وُظِّفت في النص الروائي؟ وما مدى توفرها في رواية جبل حالية؟

ويشتمل البحث على محورين، يسبقهما مدخل عن: مفهوم الإيكولوجية النقدية، على النحو الآتي: المحور الأول: علاقة الإنسان بالبيئة البيولوجية ويتضمن (الإنسان، والحيوان، والنبات) في ضوء ثنائية الإيجاب والسلب؛ أما المحور الثاني: فيتناول علاقة الإنسان بالبيئة الصناعية، ويتضمن (عالم القرية، وعالم المدينة) في ضوء ثنائية الجمال والقبح. ويختتم البحث بخاتمة تضمُّ أبرز النتائج التي توصل إليها.

مدخل

يعدُّ النقد الإيكولوجي أحد الاتجاهات النقدية الحداثية التي ظهرت بعد منتصف القرن العشرين، وتحديداً في العقد السابع من القرن نفسه؛[١] حيث ظهر في حقولٍ معرفيةٍ عديدة قبل أن يعرفه الميدان الأدبي، مثل: حقول العلوم الطبيعية، ثم حقل الفلسفة والعلوم الإنسانية بعد ذلك.[٢]

والنقد الإيكولوجي هو النقد الذي يهتمُّ بدراسة" العلاقة بين الأدب والبيئة المادية"،[٣] وبعبارة أدق، هو النقد الذي يهتمُّ بدراسة النصوص الأدبية التي تُعنى بمظاهر الطبيعة بجميع أشكالها، وتجعلها محور الاهتمام. ونظراً لأنَّ اللغة الأدبية تتسم بالرقي والسمو عن اللغة السطحية المباشرة، كان لابدَّ للأديب أن يتخذَ بعض الوسائل؛ لإيصال رؤيته إلى المتلقي، ومنها لجوؤه إلى الطبيعة بمظاهرها المختلفة.[٤] والمتأمل بدقة لرواية "**جبل حالية**"[٥] لإبراهيم مضواح الألمعي، يرى أنَّ الطبيعة تستحوذ على نطاقٍ واسعٍ من فضائها النصي؛ إذ لم يكن وجودها مجرد زخرفةً خارجية لا تمتُّ إلى العمل بصلة؛ بل تعد عنصراً حيوياً من عناصر إيصال رؤيته الأدبية للمتلقي، وقد ساهم في

---

١ – ينظر: إيمان مطر السلطاني، وآخرون: **نسق النسوية البيئية في رواية حديقة حياة للطيفة الدليمي**، مجلة الطريق للتربية والعلوم، المجلد٦، كانون الثاني ٢٠١٩م، ص٦٣٢

٢– ينظر: مايكل برانش: **النقد الإيكولوجي**، ترجمة: معين رومية، نوافذ، العدد ٣٦، جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/مايو٢٠٠٧م، (النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، ص ٢٨.

٣– جيرار جيراد: **النقد البيئوي**، ترجمة: عزيز صبحي جابر، ط١، مشروع كلمة، أبو ظبي، ٢٠٠٧م، ص ١٠.

٤– ينظر: محمد أبو ملحة: **السرد العالم الموازي**، ط١، (الانتشار العربي، بيروت، نادي حدة الأدبي، ٢٠١٥م)، ص ٦٢.

٥– إبراهيم مضواح الألمعي: **جبل حالية**، ط١، (جداول للنشر والتوزيع، الكويت، ٢٠١١م).

ذلك تلك الطبيعة التي تمتاز بها الرواية باعتبارها "جنساً مفتوحاً على كلِّ الموضوعات، والاتجاهات، والفئات، والطبقات"[١]. لذا سأحاول أن أعرض الإيكولوجية عرضًا ممتزجًا مع عناصر النص الروائي، التي تتمثل في (الشخصيات، والأحداث، والزمان، والمكان، واللغة)، إيماناً بمبادئ النقد الإيكولوجي الذي يتطلع إلى " إثبات كيف أنَّ عناصر النصوص الأدبية تعمل سوية، أكثر مما يتطلع إلى تحليلها بشكل منفصل".[٢]

١ – نجاة سويسي: رواية السيرة الذاتية في (مزاج مراهقة) لفضيلة الفاروق، **رسالة ماجستير**، (جامعة منتور قسنطينة، الجزائر، ٢٠١١م)، ص ٢٣.

٢ – مايكل برانش: **مرجع سابق**، ص ٤٧.

المحور الأول:

علاقة الإنسان بالبيئة البيولوجية:

يرتبط الإنسان بالبيئة البيولوجية المتمثلة في (الإنسان، الحيوان، النبات) ارتباطاً وثيقاً؛ إذ لا يمكنه أن يعيش منعزلاً عنها جميعاً أو عن بعضها إن آثر ذلك، وسنبدأ بالأكثر حضوراً في فضاء الرواية، وهو **الإنسان**؛ لذا آثرت تقديمه عن بقية العناصر، ونحاول الاقتصار على الشخصيات التي امتزجت بالبيئة وبالآخر معاً. متبعين في ذلك ثنائية الإيجاب والسلب.

وننطلق من الشخصية الرئيسة/عمر السورجي؛ حيث استحوذ الحديث عنه وعن علاقته بالشخصيات الأخرى على أغلب صفحات الرواية فكان طرفاً أو سبباً قويٌ لأحداثها، وسأبدأ بعلاقته مع آسية التي شاركت الطبيعة القروية والتشوُّه المدني حديثه وآلامه عن فقدها، فكثيراً ما استعان بها الكاتب في وصف أحاسيسه ومشاعره، وهي علاقة تتسم بالإيجابية حتى بعد فقدها؛ إذ كثيراً ما نجده يعود بذاكرته لأيام الطفولة التي جمعته بها، بدافع الوفاء الذي ما زال البطل محافظاً عليه بالرغم من قسوة الفقد. يقول السارد: " **يراوده الأمل أن يلقى هنا آسية، رفيقة طفولته في السورجة. شاركته مع أخيها نافع بؤس الطفولة، وبراءتها، ولذتها. تجمعهم الحقول، وظل الشجر، ودروب السورجة**".[١] إن هذا الحنين الذي اشتعل في داخل الشخصية كان للقارئ الذي يراقب المشهد نصيبًا منه، فالحنين إلى الماضي والعودة بالذاكرة إليه له" أثرٌ مطمئنٌ ومهدئ"[٢] للنفس البشرية. وأصبحت القرية التي كانا يعيشا فيها بعد وفاتها ذكرى مؤلمة.

---

١ – مدونة الدراسة: ص ١٣.

٢ – غازي سنايدر: المكان والإقليم والمشتركات، ضمن كتاب (**الفلسفة البيئية**)، تحرير مايكل زيمرمان، ترجمة: معين شفيق رومية، (عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٣، شوال ١٤٢٧/نوفمبر٢٠٠٦)، ج٢، ص ٢٨٤.

بينما نلمح ثاني العلاقات الإنسانية مع زوجته (زهرة الأهدل) التي عانت منه كثيرًا؛ إذ كان جسده معها وقلبه مع آسية، فالشخصية الرئيسة تعترف بتقصيرها معها، وكثيراً ما حاولت احتواءه لكن دون جدوى. فالقرية التي يعيش فيها برفقتها تذكره دومًا بـ(آسية) بدءًا من البيت الطيني الذي كان يقابلها فيه، مرورًا بالطروقات التي كان يلتقيها فيها وصولًا إلى مثواها الأخير(القبر). فمنظر القرية بعد وفاتها تشوه بالنسبة إليه لأنه يحمل ذكرى مؤلمة لايكاد أن ينسها.

ومن الزوجة ننتقل إلى الجدة (فضة) التي تعهدت برعايته بعد وفاة أمه؛ لأنها كانت تخاف عليه من قسوة المعلمين، فأخرته عن الدراسة ثلاث سنوات من شدة حرصها عليه ، فعلاقته معها إيجابية، بينما اتسمت علاقتها بالآخر/ الرجل بالسلبية، ويعضد ذلك الرأي امتناعها عن الزواج؛ كي لا يدنسها رجل قط على حد قولها، وربما يعود السبب إلى وثوق (حالية) – قريبتها– برجل، إذ سلمته حالها، ثم فضلت الانتحار؛ كي لا يفتضح أمرها، فسقطت من أعلى جبلٍ في القرية حيث سُمي باسمها لاحقاً، فحادثة الجبل وعلاقة صاحبته بالرجل كوَّنا نفوراً وعلاقةً سلبية لدى فضة، في حين أن علاقتها ببنات جنسها كانت جيدة، وتتسم بالإيجابية، فهي تشاركهن أفراحهن وأتراحهن، بالإضافة إلى أنها كانت قوية صامدة في مواجهة الموت، فهي "**التي تسلي الباكيات من حولها، تحكي لهن الرؤيا التي رأتها البارحة**".[١] حيث تحاول أن تهدئ مرارة الفقد الذي أصبن به، وهذه التهدئة دليلاً على علاقتها الإيجابية بهن.

١– مدونة الدراسة: ص ٥٢.

وبعد الحديث عن علاقة الشخصية الرئيسة بالنسوة ننتقل إلى علاقته بالرجل ولعل أبزر تلك العلاقات علاقته بـ(نافع ابن المطوع)، حيث تأرجحت العلاقة بينهما بين الإيجابية والسلبية، فالإيجابية كانت منذ الطفولة حتى سن الرشد إلى أن بدأت وتيرة السلبية ترتفع، ثم بلغت العمق مع تعيين نافع إماماً على القرية، وارتباطه بسالم مهدي، حيث استطاعوا أن يمتلكوا الأراضي الزراعية في السورجة ومحطة بنزين ومحلات تجارية، فكان لهم هيبة وسلطة اكتسبوها من مكانتهم الدينية أولاً، ومن مكانتهم الاجتماعية ثانياً، ثم عادت علاقتهم إلى الإيجابية عندما حرص عمر على الاقتراب من نافع والتودد إليه فكان يجتمع معه بعد صلاة العصر في مكتبه العقاري ، ويستحضر معه أيام طفولتهم في السورجة، وهذا الأمر كان له أثرٌ إيجابي في ذهن نافع حيث اعترف بصفاء قلب عمر وما يحمل في داخله من خير كثير، ويتضح هذا من خلال حوار نافع مع سالم المهدي. يقول السارد: " **استنكر سالم المهدي على نافع قبوله لهذه الصداقة، مع رجل يجمع الكثير من المنكرات...، أكد له نافع أن عمر طيب القلب، وفي داخله خير كثير، فهو يعرفه منذ الطفولة**".(١)

وأرجع تغير سلوكه إلى جمال ابن عمه، الذي قاده إلى المنكرات، وعليهم أن يستنقذوه مما هو فيه، وكأنه بهذا التحليل يُرجِع سبب ذلك إلى البيئة الملوثة التي ينتمي إليها جمال، (بيئة المدينة) التي لوثت أخلاق عمر؛ فجلب الدش إلى السورجة، وحلق اللحية، وأسبل ثوبه، وكلها أمور لم تألفها القرية/ عالم الطبيعة.

---

١ – مدونة الدراسة: ص ١٨٤.

أما عن علاقته بـــ (سالم المهدي) فكانت علاقة سلبية سيئة كتلك العلاقة التي كانت بين سالم المهدي والآخر/ الإنسان، ومن ذلك اســـتعانته بمشـــعان المشعوذ لزواجه من (تركية الأهدل)، التي كانت تتمنى (حسن الذيب) زوجاً لها، فصرف حسن عن طريقه، وظفر بها رغماً عنها، وأعـــاد الكـــرة مـــرة أخرى مع آسية التي فضلت الانتحار؛ لتحمي عمر من سالم، وكي لا تـــرتبط به، ثم تحولت علاقة سالم بالآخر/ الإنسان إلى علاقة سيئة مبطنة -إن صـــحَّ التعبير-، يتضح ذلك في الحوار الذي جمع زوج المطوع وعمر بعد أن قدمت لزيارتهم في البيت، " **سالم المهدي يتبع مصلحته، ومصلحته الآن مع نافع، ونافع ما يدري عن أفعال سالم المهدي مع المطوع وآسية**".[١]

فـــ(سالم المهدي) راح يظهر الخير ويبطن الشر، وكأن التغييـــر الـــذي طرأ عليه كان انسجاماً مع سياسته الجديدة فقط، لا لخلقه واعتداله، فهو ينظر لمصلحته لا غير.

ومن علاقة عمر بأبناء القرية ننتقل إلى علاقته بأبناء المدينة فـــ(جمال ابن عمه) كانت علاقته معه تتسمُ بالإيجابية إلى حدٍ كبيـــر رغـــم اخـــتلاف العادات والتقاليد في البيئتين التي ضمتهما، فكثيراً ما كان يدافع عن عمر في خصامه مع نافع فهو يكره التشدد الذي كان يسير فيه نافع، كما اعترف له بأن المدينة لا تصلح للسكن وأن القرية هي الأفضل.

كما يصف عمر جمال بالشجاعة فهو يشعل السيجارة أمام السورجيين، بينما هو لا يقوى على ذلك، يقول السارد: " **إنه ليس كجمال الـــذي لا يهـــتم لأحد، ويشعل سيجارته بحضرة أي سورجي. يحسد جمال على شجاعته، ولا**

---

١ - مدونة الدراسة: ص ١٨٨

مبالاته، ثم يعود فيعتز بصموده أمام شهوة التدخين، فهو يعرف نفسه؛ إنه كإحدى صخور الثابتة في رأس جبل حالية، منذ آلاف السنين، لكنها لو تزعزعت، فلن تستقر إلا في قعر الوادي السحيق الذي تطل عليه السورجة".(١)

فالسارد في النص السابق يصور حال ابن القرية وابن المدينة وهما حقيقة يقومان بدور أكبر وأعمق من واقعهما فكأنه يصور سلوك بيئتين مختلفتين، فابن القرية لا يقوى على الانفلات من مبادئه التي تربى عليها فهو يحرص عليها، بينما ابن المدينة لا يرى في ذلك حرجًا. أما علاقته بـ(سعيد) فكانت تمتاز بالسطحية، وأن كانت تحمل نوعاً من الإيجاب.

ثم ننتقل إلى ثاني أنواع البيئة البيولوجية حضوراً في الرواية، وهو **الحيوان**، وقد تعددت صور الحيوانات في الرواية موضع الدراسة، منها: **حيوان البقر** الذي جاء ذكره كضريبة إهمال البطل السروجي/عمر لكتابه المدرسي، حين انشغل عنه بكتابة اسم آسية، الذي خرج أخيراً بعد طول عناء مشوهاً (أسيا)، في وقت كان سعيدا بكتابته، لكن السعادة ونشوة الفرح لم تدم طويلاً؛ إذ وجد كتابه مأكولاً نصفه.

لقد صوَّر الكاتب شعوره عندما رأى كتابَه وقد أكلت جزءًا منه بقرةُ المطوع/والد آسية، وكيف كان ذلك مفجعاً مؤلماً له؛ إذ حرمه ذلك لذه النوم ليلة كاملة.

يقول السارد: " **وجاءت بقرةُ المطوع فأكلت جزءاً منه، وأدرك جزءاً. كانت فاجعة حرمته النوم تلك الليلة، ولم يكن يشاركه الهمَّ أحد، فلم يجرؤ**

١- مدونة الدراسة: ص ١٢١

على إبلاغ أبيه بهذه الكارثة، فسيضربه عقوبة إهماله قبل أن يسمع تبريراً لما حدث".[١]

فعلاقة الشخصية الرئيسة بالبقرة علاقة سلبية؛ إذ حرمته النوم ليلة كاملة، بعد أن أكلت جزءًا من كتابه المدرسي. وإذا ما فتشنا عن سبب اختيار (البقرة) دون غيرها عن سائر الحيوانات مثل الماعز على سبيل المثال، فإننا نجد أنه أراد أن يذكرنا بما هو سائد في الوعي الجمعي عند بعض البشر عن حيوان البقر تحديداً، إذ تُطلق على كل مَن لم يفهم من البشر، فعندما يسعى إلى توبيخ شخصٍ ما، تكون البقرة من الحيوانات التي تعتلي عرش الصدارة. ويعضد ذلك الرأي ما قاله والد عمر في اليوم التالي بعد أن عرف بالأمر: " **كيف تترك كتابك علفاً للبقرة يابقرة؟!**"، [٢] فحيوان البقر مع ما يقدمه من منافع للإنسان من لبن ولحم، إلا أنه يذكر غالباً في سياق الذم والتوبيخ، وهذا الموقف لم يستطع عمر تجاوزه بالرغم من السنين الطوال، فما زال يشعر به بين الحين والآخر، ويعضد ذلك ذكره مرة أخرى بمرارة أقوى وأشد من الأولى: " **يتذكر كتاب الهجاء الذي أكلته بقرة المطوع، يحذر ولديه محمد وحسن، من أن تأكل البقرة كتبهما، مع أنه لم يعد هناك بقر في السورجة. أصبح الناس يأنفون من تربية المواشي، ويعتمدون على الحليب المبستر. لو حدث ذلك لكتاب أحد ولديه فلن يضربه على وجهه، ولن يشبهه بالقرة؛ بل سيقبله ويذهب معه من الغد؛ ليستبدلا بكتابه المأكول كتاباً جديداً**". [٣]

---

١ – مدونة الدراسة: ص ١٤.

٢ – مدونة الدراسة: ص١٤.

٣ – مدونة الدراسة: ص ٢٠٤.

إنَّ الضرر النفسي الذي لحقه استمرَّ طويلاً، فوقعه في النفس كان شديدًا وقويًا؛ إذ أصبح موقفاً ملازماً لعمر، فلم يفارقه حتى مع تقدم السنين. ولم تكن البقرة هي الحيوان الوحيد الذي شغل فضاء الرواية؛ بل نجد أيضاً **الأفعى**، هي الأخرى وُظِّفت في الرواية، ولكن لمرة واحدة فقط. يقول السارد: " **في الجامعة طابور المكافأة الشهرية أهم بكثير من طابور شراء المذكرات. طابور المكافأة يمتد كالأفعى في الممرات والدهاليز**".[١]

لم تأتِ علاقة الإنسان بالأفعى لتقريب الصورة التي يريد التعبير عنها، والمتمثلة في التشبيه بالطول فحسب؛ بل جاءت لتدل على أمرٍ أبعد من ذلك، وغير مباشر في الوقت نفسه يتمثل في الإضرار بغيرهم، فكما أنَّ الأفعى تضرُّ من يواجهها باللدغ، كذلك هو حال من أمر بالطابور الممتد كي يستلم الطلاب مكافأتهم الجامعية حيث كان يضرُّ بمن يواجه من الطلاب عندما يختلس من مكافأتهم التي تحت يديه. ويتضح من المشهد السابق أن العلاقة جاءت سلبية ولا تحمل أي قيمة إيجابية.

لم تقف علاقة الإنسان بالحيوان في الرواية –موضع الدراسة– عند هذا الحد؛ بل نجد السارد يستخدمه مرة ثالثة؛ لتوضيح الدلالة التي يرمي إليها النص. يقول السارد: " **قرأ عمر عن احترام الأمم المتحضرة للطابور، وأنَّ الكلب هناك يحمل السلة بفمه، ويقف في الطابور لا يتقدَّم أحداً، ولا يتقدمه أحد، حتى يصل للبائع، فيأخذ ما في السلة، ويضع السلعة المطلوبة في السلة.**"[٢]

---

١ – مدونة الدراسة: ص ١٠.

٢ – مدونة الدراسة: ص ١١.

يصوِّر السارد في النص السابق حالة **الكلب** في بيئتين مختلفتين: الأولى: في الأمم المتحضرة، فهو محترم فيها، ولا يستطيع أحدٌ أن يتقدمه في الطابور، فالكلب في هذه البيئة يحظى بالتقدير، والعلاقة إيجابية، بينما علاقة الكلب في البيئة الثانية على خلاف ذلك، فهي علاقة سلبية ولا تحمل أي قيمة. وقد يظن القارئ للوهلة الأولى أنَّ ذِكر الكلب في هذا المشهد جاء لمجرد استعراض لثقافة المؤلف فحسب، لكنه لم يكن كذلك في حقيقة الأمر، بل يرمي إلى شيءٍ أبعد من ذلك، يتضح في تقدم أصحاب الوساطات والعلاقات على مَن في الطابور وعدم الاحترام لمن سبقهم في الطابور. يقول السارد: "**بعد أن تعرض عمر مرات عديدة لتقدم الأقوياء والبجحين في خضم الفوضى، وأصحاب الوساطات، والعلاقات، والوجوه المألوفة**".(١)

وبمواصلة الحديث عن حضور الحيوانات، وطبيعة علاقتها بالإنسان يطالعنا وصفُ المطوع لعمر السورجي **بالحصان** بعد أن تماثل للشفاء بالقرآن الكريم على يده. يقول السارد: " **ما شاء الله تبارك الله، أنت اليوم مثل الحصان يا عمر.**"(٢)

يعدُّ الحصان من الحيوانات التي تتصف بالشجاعة، والقوة، والخفة، والمهارة، وهذا الأمر رُسِّخ في الوعي الجمعي، وضُرب به كلُّ من يتمتع بهذه الصفات من الرجال، فعمر بعد أن تماثل للشفاء، نهض وعزم على شدِّ الرحال للمدينة؛ لمواصلة مشواره التعليمي، فجمع بذلك من صفات الحصان (القوة، والخفة، والإقدام)، إذاً فالعلاقة تتسم بالإيجابية البحتة، ولم تخرج عن حدود ما رُسخ في الذهن العربي.

١- مدونة الدراسة: ص ١١.

٢- مدونة الدراسة: ص ٦٢.

لم تفارق مظاهر الطبيعة المؤلف، فقد استعان بها حتى في أدقِّ تفاصيل الحياة اليومية، ومن ذلك وصفه بكاء آسية، **بمواء قطة** أُحكِمت من حولها المنافذ، فلم تملك سوى إسقاط دموعها أمام والدها وقتما عرض عليها فكرة الزواج من سالم المهدي. فالمؤلف عندما احتاج إلى تقريب الصورة إلى ذهن القارئ، اكتفى بوصف بكائها بمواء القطة؛ ليترك له التقاط ما غاب عن الفضاء النصي من صفاتٍ تشترك فيها آسية مع القطة، تتضح في الضعف والعجز عن الدفاع عن نفسها، فالعلاقة بينهما تتجه إلى السلبية.

ومن صور تلك العلاقة، افتخار وتباهي والد عمر بأبيه العصامي. يقول السارد: " **استطاع أن يكوِّن مملكته الخاصة بمزارع الذرة، وقطعان الماشية والأغنام**" .[١]

فالمواشي والأغنام هي مصدر رزق وافتخار لممتلكها، وهذه علاقة تتسم بالإيجابية، وبعبارة أدق، لقد تعامل الإنسان مع المواشي والأغنام تعاملا أكثر إنسانية؛ حيث أولاها اهتماماً خاصاً، فظل حامياً لها حتى من بني جنسه، وهذا يستدعي ذكر حكاية الجدة حالية لحفيدها البطل/ عمر عن والداها، عندما سرق اللصوص شاته؛ فتتبَّع أثرهم حتى عثر عليهم خلف الجبل، ووجدهم قد ذبحوها، وسلخوها، وأوقدوا النار لطبخها. تقول الجدة: " **رحبوا به، وقالوا: شاتك عندنا، أنت ضيفنا هذه الليلة، فتعشى معهم وتحدثوا، ولم يتطرقوا للسرقة، وتقاسموا معه ما بقي من لحم الشاة**".[٢]

١- مدونة الدراسة : ص ٢٥.

٢- مدونة الدراسة: ص ٢٤.

فبالرغم من أهمية المواشي عند أصحابها ومحافظتهم عليها، إلا أنَّ هذا لا يعني الانسلاخ من مبادئ الأخلاق، فوالد حالية تتبَّع شاته التي سُرقت، وقصَّ الأثر حتى وصل إليها خلف الجبل مع اللصوص، فتعشى معهم بعد أن دعوه، فقد علموا أنه صاحبها؛ لعلمهم ويقينهم بأنَّ القروي لن يتركها تمرُّ هكذا؛ لقيمتها عنده، وفي الوقت ذاته تعاطف معهم لعلمه أنَّ" **اللصوص تسرق فقد عندما تجوع**"[١]، وتختم حديثها عن هذه الحكاية بأنَّ أحد اللصوص بعد مدةٍ عاد وقدم شاتين لوالدها، وهو قانونٌ كان متبعاً لديهم. إن مظاهر البيئة البيولوجية لم تفارق المؤلف، وأسهمت في تقديم العادات والقيم التي حافظ عليها القروي.

واستعان السارد **بالنملة أيضا**؛ كي يصف عقله بعد محاوراته مع زوجته زهرة الأهدل. يقول السارد: " **ويشعره بأنَّ عقله أصغر من عقل نملة**". [٢]

فالسارد شبه عقل عمر أمام مواجهة زوجته بأنه أصغر من عقل نملة، وهو بذلك نظر إليها من حيث الحجم لا غير، فأراد بها التقليل من شأن الشخصية الرئيسة، وهي علاقة سلبية بامتياز.

لم تقف علاقة الارتباط عند هذا الحد؛ بل نجد أن هناك من لُقب بأسماء الحيوانات، مثل: حسن الذيب، الذي كان له من اسمه نصيب. يقول السارد في وصف حسن الذيب بعد أن مرض واشتد مرضه: " **كان يتحدث إلى زوّاره بثبات، كان شجاعاً في تلقي جرعات الموت المريرة**". [٣]

١- مدونة الدراسة: ص ٢٤.

٢- مدونة الدراسة: ص ١٨١.

٣- مدونة الدراسة: ص ٥٣.

إنَّ المتأمل الدقيق لصور الحيوانات التي ذُكرت في الرواية يجد أنها جاءت لتدل على ما دلت عليه في الوعي الجمعي، أو بيئة السارد، فلم تخرق العرف السائد لتوحي بغير ذلك. باستثناء النمل.

كما تجدر الإشارة إلى أنَّ الكاتب وظَّف العالم الآخر في الرواية، عندما تمثل الجن بهيئة ثعبان. يقول السارد: " **الجن يتخلقون على شكل الحيوانات والزواحف، بخاصة عند الغروب، وفي هذا الوقت قتل أخي ثعباناً...، ثم أصبح أخي مذبوحاً في فراشه**".(١)

لقد استعان السارد بمظاهر البيئة في وصف الأجواء الليلية في السورجة، وكيف أن الجن يتخلق على أشكال عدة، مثل تخلقه على شكل الثعبان الذي قتل أخا فضة/ جدة عمر، ظناً منه أنه حيوان، ليفاجأ الجميع بمقتل الصبي على فراشه، ويتضح ذلك من حوار فضة والبطل. يقول السارد في حوار عمر وجدته فضة:

" – **من قتله؟**

–**بسم الله، أعوذ بالله. قتله الجن يا ولدي**".(٢)

مازالت البيئة خير معين يستقي منها الكاتب مادته ورؤيته، فمظاهر الطبيعة لم تفارقه؛ بل وظفها حتى على العالم الآخر مثل الجن الذي تمثل على هيئة ثعبان كما ذُكِر آنفاً. وهذا يدل على سلبية العلاقة بينهما.

أما الآن، فننتقل إلى ثالث أنواع البيئة البيولوجية، والأقل حضوراً على مستوى الرواية، وهو **النبات** الذي وظفه السارد توظيفاً إيجابياً، **فالشجرة** هي

١– مدونة الدراسة: ص ٢٦.

٢– مدونة الدراسة: ص ٢٦.

مأوى وملاذ العشاق، فالسارد عندما أراد أن يصور مشاعر المحبين استعان بالشجرة؛ لأنها في الوعي الجمعي السائد مركز احتواء وأمان، فاستعان بها لإيصال ما يعانيه للقارئ، وكأنه أراد أن يشدَّ انتباه السارد من خلال القراءة، والتأمل الذهني إلى منظر الشجرة.

وإذا كانت الشجرة قد حضرت في وعي السارد، فإنها أيضاً حضرت في اللاوعي؛ حيث كانت فأل خيرٍ في منام فضة، إذ اتسم منظرها بالروعة والبهجة، كما في حديث فضة لنساء القرية، وهي تقص عليهن رؤياها قائلة: " **رأيت حالية وقد عادت طفلة جميلة، تركض في أرض معشبة كسجادة خضراء، وأمي تناديها باسطة لها ذراعيها، أخذتها أمي في حضنها، وطارت بها حتى حجبتها عني سحابة، فلم أعد أراهما**".[١]

ترتبط الطبيعة بالسارد في واقعه وحلمه؛ إذ لا يقوى على الانفلات منها، فالعشب الأخضر كما في رؤية فضة رمز إلى الخير والبشارة الطبية لحالية أخت فضة.

وبعد أن وظف السارد الشجرة ككل، وظَّف الجزء منها، مثل توظيفه للغصن، فالعلاقة بين الغصن والشجرة علاقة جزء من كل. يقول السارد: " **لم يكن يعرف قبرها، دلته عليه أغصانها الخضراء التي تغطيه**"؛ [٢] حيث جعل أغصانها تدله على قبرها، فمظاهر الطبيعة تتعاطف مع البطل لتدله على قبر حبيبته، وكأنها تشعر بما يشعر به، كما جعلها تشعر بوفاة جدته ، وتحزن عليه في قوله: " **لم تكن السورجة خضراء زاهية كما عهدها عمر، ولا**

---

١ – مدونة الدراسة: ص ٥٢.

٢ – مدونة الدراسة: ص ٨٦.

سماؤها صافية، حتى أشجارها فقدت رونقها"،[١] فالحزن خيم على كل شيء حوله بالرغم من مرور أسبوعين على وفاة جدته، فلم تعد تتوشح الخضار، ولم تعد السماء صافية نقية، حتى الأشجار افتقدت حسنها ورونقها. إنَّ مزج جو الحزن الذي اعترى الإنسان بمظاهر الطبيعة كالسماء والأشجار يحقق غايات الفلسفة البيئية؛ لأنه يبعث المشاركة في العلاقة بين الإنسان والطبيعة من حوله أولاً، ثم تنتقل هذه المشاركة إلى القارئ نفسه، فتتحقق أسمى غايات الاتجاه الإيكولوجي لاشتمالها على مثلث الإبداع: (القارئ، والمبدع، والنص).

ومن صور توظيفه للجزء نجد **الزهرة** هي الأخرى قد استعان بها السارد لتصوير علاقة عمر وآسية بالزهرة الأولى في شجرة حياته الغرامية. إنَّ المتأمل في طبيعة هذه العلاقة، يلحظ أنَّ الزهرة تمثل اللطف والنقاء، فهي الأولى في حياة البطل السروجي؛ أما الشجرة استعان بها لتكون إشارة رمزية عن مسيرة حياته العاطفية.

وبالنظر إلى المطر الذي يعد أحد الظواهر الكونية والتي تنتمي للطبيعة، فقد جاء بدلالتين إحداهما سلبية والأخرى إيجابية، ويتفوق السلب على الإيجاب من حيث الحضور. فالإيجابية جاءت على لسان الجدة في حوارها مع البطل: " **عندما يمرُّ العام دون هطول المطر، تجدُب الأرض، وتصبح المزارع بلا قيمة**".[٢]

حيث يعد المطر من أهم أسباب البقاء البشري في القرى على وجه التحديد، فالخير يستبشر بهطوله إذ يحمل معه الخير، والقروي لا قيمة لمزرعته دون المطر؛ حيث تصبح حياته مهددة بالخطر في حال انقطاعه.

١- مدونة الدراسة: ص ٥٩.

٢- مدونة الدراسة: ص ٢٣.

أما السلبية فقد جاءت في قول السارد: " **كانت ليلة بائسة؛ اجتمعت فيها الصواعق، وكآبة الليلة المطيرة، وكرب الولادة**"[١]

فعمر ولد بليلة مطيرة وفقد أمه قبل أن تلقمه ثديها. وهذا الأمر قاد والده بنعته بالشؤم دوماً ففي تلك الليلة لم تطلق رصاصة واحدة بفرح قدومه كما تجري العادة. فالمطر هنا ارتبط بالحزن. كما ذكر في موضع آخر بالدلالة نفسها، يقول السارد في وصف الليلة التي توفى فيها حسن الذيب: " **في ليلة ماطرة وعاصفة، كتلك التي ولد فيها عمر غادر حسن الذيب السورجة إلى جبل حالية**"[٢]

فالمطر هنا ارتبط بالفقد فكما فقدت السورجة والدة عمر ليلة ولادته فقدت أيضاً حسن الذيب في الأجواء نفسها.

وبعد الحديث عن توظيف الشجر في عالم القرية ننتقل إلى توظيفه في عالم المدينة، فالتشوه المديني ظهر في مواضع متفرقة من الرواية من خلال عنصر الطبيعة الشجر. يقول السارد: " **هذه المدينة اللئيمة لا تتأثر لموت آسية، ولا تشاركه أحزانه، ولا تعبأ لمشاعره...، تحولت أشجار الشوارع الخضراء بالأمس إلى أشباح تحدق تجاه عمر**"، حيث فقد الشجر خاصيته المعهودة، وتحول إلى شبحٍ يثير الخوف في البطل نفسه ، فهرب من مرارة الفقد إلى غربة لا ترحم، وأسقط عليها إحدى الصفات الإنسانية الذميمة، وهي اللؤم؛ لأنها تفتقد إلى المشاعر والأحاسيس. لقد تحولت علاقة الشجرة إلى السلبية في عالم المدينة. فأصبحت شبحا يثير الرعب في نفوس مرتاديها.

١- مدونة الدراسة: ص ٧

٢- مدونة الدراسة: ص ٥٣

وكما أطلق السارد أسماء الحيوانات على البشر، نجده يطلقها على النباتات أيضًا، مثل، اسم زهرة الأهدل، فالتطابق بين الاسم والصفات التي تنطبق عليها زادها قوة، يقول السارد: " **في مرقده يلوم عمر نفسه: "كم كنت غبياً! فقد كان بوسعي أن أحيا معها حياة هادئة ممتعة"، حاولتْ كثيراً أن تعيد ترتيب حياتهما، ولكنها عجزت أمام ضجره، وسآمته، وقلقه. يعتقد أنها ستكون أسعد بعد رحيله، تدير شؤون الصغار بهدوء. لن تتزوج، فقد أقسمت أني سأكون الرجل الأول والأخير في حياتها**".[١]

إنَّ الهدوء والنقاء الذي تمتعت بهما الزوجة، ورقة العاطفة باليمين التي قطعتها على نفسها بألا تتزوج بعده، تناسب دلالة الاسم (زهرة)، فاللطف والرقة من أهمِّ صفات الزهرة. ولم يكن هذا المشهد هو الموقف الوحيد؛ بل نجدها أيضًا ترفض إزالة أجهزة الإنعاش عن زوجها وهو أمرٌ إيجابي. يقول السارد: "**رفضت زهرة الأهدل إزالة أجهزة الإنعاش عن عمر، بينما يقول أبوها: إنها مجرد تطويل لأمد معاناته**".[٢]

إنَّ المتأمل في اسم (زهرة) نجده يستنبط من مظاهر الطبيعة صفاتها، فالطبيعة مازالت ملتحمة مع السارد، لا يقوى على الانفلات منها، تُسهم في تقديم رؤية صاحبها بكلِّ وضوح وشفافية.

والحديث عن علاقة الإنسان بالبيئة البيولوجية يقود المتتبع إلى طرح التساؤلات عن علاقة الإنسان بالبيئة الصناعية، وهذا مدار حديثنا في المحور الثاني –إن شاء الله.

١- مدونة الدراسة: ص ١٨٢.

٢- مدونة الدراسة: ص ٢١٥.

المحور الثاني:

علاقة الإنسان بالبيئة الصناعية:

يعدُّ الإنسان جزءاً من البيئة الصناعية، فهو "يشكل مكوناً ديناميكياً فعالاً في عملياتها"،[١] ويشترط أن يدين لها بالولاء والمحافظة عليها.[٢] ويمكن تقسيم البيئة الصناعية قسمين: عالم القرية، وعالم المدينة. ويعود السبب في اختيار هذا المسمى (البيئة الصناعية) تحديداً نظراً؛ لأنه يشير إلى كل ما يتدخل الإنسان في صناعته سواءً كان بنظام بدائيًا أو متطورًا. من هذا التقسيم يمكن أن ننطلق في دراسة هذا المحور من ثنائية الجمال والقبح.

أولاً: ثنائية الجمال والقبح في عالم القرية:

يهتمُّ النقد البيئي بالعوالم القروية اهتماماً خاصاً، ويوليها مكانةً لا نظير لها؛ لأنها" أكثر مسالمة مع البيئة من حياة المدن التي تنتهك الطبيعة، وتشوِّه جماليات البيئة".[٣]

ونلحظ في رواية جبل حالية أنَّ السارد اهتمَّ بعالم القرية، وأفرد لها مساحةً نصيةً واسعة في فضاء الرواية، بدءًا من العنوان المستوحى من الطبيعة (جبل حالية) وصولاً إلى نهاية الرواية، إذ يعد أحد معالم القرية وأبرزها، والمتأمل الدقيق للعنوان يلحظ التحام العلاقة بين الطبيعة والإنسان. فالبيئة استطاعت أن تسيطر على تفكير الكاتب فكانت وسيلة لترسيخ فكرته، ورؤيته الخاصة تناغماً وانسجاماً مع مبادئ النقد الإيكولوجي/البيئي.

١- سامح عبدالسلام محمد: **علاقة الإنسان بالبيئة**، مقالة، شبكة الألوكة، ٢٠١٣م. https://www.alukah.noK

٢- انظر: المرجع السابق.

٣- محمد أبو ملحة: مرجع سابق، ص ٦٦.

وقد حرص الكاتب على إبراز **ثنائية الجمال والقبح** في القرية حيث وظف تقنية شائعة في كتابة الرواية الحديثة، وهي: **الأنسنة** بشقيها (الجسدي والنفسي)؛ إذ ساعدت على إبراز جمال ومفاتن القرية التي تمتاز بها، مثل صور أنسنة القرية في البعد الجسدي قول السارد عن مشاعر رحيل عمر عن القرية: " **كيف يصبر عن رؤية آسية شهوراً طويلة، وهو الذي يراها كل يوم، كما يرى وجه السورجة ضوء الشمس كل صباح؟**".[١]

فالقرية هنا اكتسبت خصيصة من خصائص الجسد الإنساني، وهي الوجه؛ حيث جعل السارد للقرية وجهًا يرى ضوء الشمس كلَّ صباح كما يرى عمر آسية كل يوم، وبالانتقال من الجمال إلى القبح نلحظ أنه لم يقف عند هذا الحد في توظيف خصائص الجسد الإنساني؛ بل نجد أنه " يدخل في دائرة قرائن الجسد كل ما له التحام معه كالملابس... والأصوات"،[٢]وفي طليعة ذلك الثياب باعتبارها أكثر ما يلتصق بالجسد الإنساني. يقول السارد: " **تيقَّن عمر أن جيله سيكون الجيل الأخير الذي يشهد السورجة مرتدية ثوبها القديم، الذي لبسته منذ مئات السنين، ويشهدها وهي تخلعه أو يُخلع عنها، بعد أن حافظت عليه قروناً طويلة، تبدو له السورجة عارية قميئة**".[٣]

إنَّ المتأمل في النص السابق يلحظ أنَّ توظيف الثوب جاء ليرتبط بالهوية ويؤكد عليها، ومن هذه الدلالة تتضح ثنائية القبح والجمال في القرية،

١- مدونة الدراسة: ص ٣١.

٢- حسين مجيد حسين: **أنسنة المكان في رواية (هولير حبيبتي) لعبدالباقي يوسف**، (مجلة قه لاى زانست العلمية، الجامعة اللبنانية الفرنسية، العراق، المجلد٣، العدد٤، ٢٠١٨م)، ص ٧٠٦.

٣ - مدونة الدراسة: ص ٢٠١.

فالسورجة التي حافظت على هويتها قروناً مديدة، ستخلع أو يُخلع عنها لباسها لتبدو عاريةً من القيم والعادات وكلَّ شيء قد حافظت عليه، فمن بعد جمال القرية برز قبحها بعدما تخلت عن عاداتها وقيمها. كما يؤكد ما طرأ عليها، فمن بعد جمالها نقلنا إلى قبحها الذي طرأ عليها مع مرور الزمن.

ومثل ذلك توظيف ما يلبس فوق الثوب، وهو **الرداء**؛ ليصف انتهاء حالة الحزن التي مرت بها القرية/السورجة. يقول السارد: " **خلعت السورجة رداء حزنها على حسن الذيب**".[١]

فالسارد بعدما وصف آخر عهد السورجة بالفرح، وأراد أن يختم الحديث عنها، ذكر قصة حسن الذيب إيذاناً بخلع رداء الحزن وإعلاناً للفرح. فكأنه عكس المعادلة في ثنائية الجمال والقبح، فبعد أن كانت من الجمال إلى القبح، أصبحت من القبح إلى الجمال فبعد الحزن الذي خيم على القرية وألبسها رداء القبح، جاء الفرح وألبسها رداء الجمال.

ومن صور توظيف قرائن الجسد **الصوت**؛ إذ وصف جبال القرية بترديد الصوت، يقول السارد: " **وفي منتصف تلك الليلة سمع الناس في السورجة صوت امرأة تعبر الطريق إلى بيتنا، وهي تنشد...، والجبال تردد صدى نشيدها**".[٢]

حيث بلغ جمال القرية ذروته مع الصوت الذي يعد إحدى قرائن الجسد الذي أطلقه السارد على الجبال وهي تردد نشيد المرأة التي عبرت الطريق، وكأنها إشارة إلى السكون الذي تنعم فيه القرى، بعكس الضجيج الذي تكتظ به المدن. فالقرية هنا وصفها بالجمال الداخلي الذي لا يشابهه جمال.

١- مدونة الدراسة: ص ١٥٠.

٢- مدونة الدراسة: ص ٢٦.

وفي مقابل الصوت يحضر الصمت ليكون قرينةً أخرى من قرائن الجسد. يقول السارد وهو يصف حال المطوع وأسرته بعد أن رفضوا أن يكون سالم المهدي زوجًا لابنتهم آسية: " **ساد الوجوم والصمت بيت المطوع، فلا يتكلم أحد إلا لضرورة**".[١]

في النص السابق لا يمكن قبول تسلط المعنويات مثل الوجوم والصمت على البيت، إذ ليس من حقها التسلط عليها إلا عن طريقي أما المفارقة، وهذا الأمر يعطي دلالات جديدة لم يكن في الإمكان إنتاجها من كل لفظ على حدة؛ فـ " من الجملة تنمو علاقات هرمية تتشابك بها عناصر النص، لتكون دلالته الكلية"،[٢] أو عن طريق الأنسنة؛ حيث أعطي البيت بعض الصفات الإنسانية كالوجوم والصمت، وفي كلا الطريقين نجد أنَّ الفلسفة البيئية/ الإيكولوجية تجعل الطبيعة بؤرة الاهتمام. فالقبح الذي أراد الكاتب إيصاله هو ضعف المطوع أمام جشاعة سالم المهدي، وكأنه يشير إلى عجز الضعيف عن دفع الضرر به. مما جعل الصمت هي الوسيلة الوحيدة أمام هذه القوة. فكما أظهر جمال القرية أظهر قبح بعض سلوكيات أهلها.

ومن صور الأنسنة مخاطبة البطل/ عمر للقرية بعد وفاة آسية. يقول السارد: " **آه كم أنتِ بائسة ولا تطاقين! ماقيمة السورجة وقد أمست آسية في جبل حالية؟!**". [٣]

١- مدونة الدراسة: ص ٧٥.

٢- عبدالله الغذامي: **تشريح النص** ، ط١، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧م)، ص٤٠.

٣- مدونة الدراسة: ص ٨٥.

حيث كشف لنا المونولوج الداخلي نفور عمر السورجي من القرية بعتابٍ حاد، مثل: (البؤس، وعدم التقبل)؛ إذ تبدو قبيحة كئيبة، حيث لم يستطع أن يقيم فيها ليلة واحدة، فكيف يبكي آسية في ظلِّ وجود جدته ووالده، والبكاء ليس من سمات الرجولة، فعاد إلى المدينة كي يبكي دون أن يراه أحد. إنَّ ردة الفعل هذه طبيعية، وفقاً للحدث وللحالة النفسية التي مرَّت بها الشخصية الرئيسة إثر تلقيها خبر انتحار محبوبتها، فهو قبح مؤقت مرتبط بظرف خاص، لكن في حقيقة الأمر نجد أنَّ الشخصية الرئيسة محبةً للقرية منتمةٍ لها، فعتابها لها عتاب محب لا أكثر، ونظرة القبح لها مؤقتة، مقرونةً بظرف خاص.

إنَّ مظاهر الطبيعة لم تفارق المؤلف؛ بل أسهمت في التعبير عن مشاعر شخصياته وإيصال فكرته إلى القارئ، ويبلغ الامتزاج بالطبيعة أعلى مستوياته عند انتقال السارد من وصف المحسوسات إلى المعنويات، فقد وظف **البحر** بوصفه أحد مظاهر الطبيعة في وصف المعنويات مثل: الموت. يقول السارد: " **أما بالنسبة للذين يتجرعونه، فإنه كالبحر، لا يغير لونه ولا طعمه أبداً، يستوي للموت الذي التقط أبناء السورجة واحداً تلو الآخر، وقد تعددت أسماء البحار، لكن النتيجة واحدة، وهي البحر الأبيض، والبحر الأسود، والبحر الأحمر، كلها زرقاء مالحة، وكذا الموت/ بمرارته، وقسوته، وبشاعته**".[١]

فالبحر هنا معادلٌ موضوعيّ زرقة المياه مع ملوحتها، وكذلك الموت، لا يفرق بين قريب ولا بعيد، فهو يرمي سهامه دون أدنى رأفة لمتلقيه،

١ – مدونة الدراسة: ص ٢٣.

فتعددت الأسباب والنتيجة واحدة، وقد وضعته تحت هذا المحور باعتبار أن الموت – الطرف الثاني– هو الذي تلقف أبناء السورجة/القرية، فجاء البحر ليعبر عما يشعر به البطل تجاه الموت، الذي يعد من أقبح وأقوى ما يواجه القرية.

ويتمثل البُعد النفسي في صورة أنسنة القرية، من خلال سطح غرفة بيت المطوع؛ حيث كان لقاء المحبين (البطل/عمر، وآسية/ابنة المطوع)، وتبادل النظرات، وقبلة الوداع، التي ختما بها لقاءهما حين أراد السفر إلى المدينة، فسطح الغرفة اشتمل على ثنائية القبح والجمال معاً، بالرغم من اختلاف الفارق الزمني بينهما. فجمال سطح الغرفة اتسم بالإيجابية، فظهرت جمالية المكان بالرغم من بساطته، عندما كان يلتقي بآسية ويتبادل معها النظرات، ويتجاذب معها الحديث، فالجمال هنا جمال داخلي، لكنها انعكست بعد ذلك إلى علاقة سلبية لدى الشخصية الرئيسة؛ لأنه المكان نفسه الذي سقطت منه، لتودع دنياها وتُكتب نهايتها. فبدأ ينظر لمكان السطح نظرة قبح بعد أن كان ينظر إليه نظرة جمال.

ومن صور ثنائية الجمال والقبح في القرية، صورة **ذكريات الطفولة** إذ كثيراً ما نجد عمر السورجي يعود بذاكرته إليها، فيتذكر لعبه مع آسية ونافع بين الحقول ودروب السورجة، يقول السارد: " **يراوده الأمل أن يلقى هنا آسية؛ رفيقة طفولته في السورجة. شاركته مع أخيها نافع بؤس الطفولة وبراءتها، ولذاتها. تجمعهم الحقول، وظل الشجر، ودروب السورجة**".[١]

١– مدونة الدراسة: ص ١٣

فالعودة إلى ذكريات الطفولة ومراتع الصبا يعد في الفلسفة البيئية أمراً إيجابياً على النفس الإنسانية، فهو يدفعها إلى الارتياح والاطمئنان، فضلاً عن كون هذه الفلسفة تنعكس على القارئ الذي يقرأ ويحاور النص، فيشعر بالهدوء واللهفة على تلك السنين التي مضت، الأمر الذي يستدعي في ذهنه أحداثاً قد مرَّ بها سابقا، قد تتقاطع مع مجريات النص وقد تختلف. فأماكن الطفولة من جماليات القرية التي حرص على إبرازها الكاتب.

ثانياً: ثنائية الجمال والقبح في عالم المدينة:

تعد المدينة" ظاهرة العصور الحديثة؛ بسبب نشأتها مع الثورات الصناعية، وما أفرزته هذه من تراتبية اجتماعية داخل فضاءاتها الحضرية".[١]

والمتأمل الدقيق لرواية "جبل حالية" يلحظ أنَّ المدينة لم تحظ بعناية السارد واهتمامه؛ إذ صورها بصور قاسية تدل على النفور منها حيث وصفها بالقبح، مثل: تصويره لشعور البطل بالوحشة والخوف، بعد أن عاد إلى المدينة ليلة عزاء آسية. يقول السارد: " **هل ستشعر بالخوف ووحشة الليل، والمكان، والوحدة؟ إني أشعر بالخوف والوحشة هنا في هذه المدينة التي تغصُّ بالناس من حولي**".[٢]

أفصح المونولوج الداخلي عن الخوف والوحشة التي تعتري البطل وسط مدينةٍ تكتظُّ بالناس، وقد دلنا على ذلك تساؤله مع نفسه عن حال آسية في أول ليلةٍ لها في القبر، فالشعور بالخوف والوحشة وعدم الارتياح كان إشارة ذكية

١- داود محمد: **المدينة في الرواية الجزائرية الفضاء القسنطيني في رواية " الزلزال"**، (مجلة إنسانيات، عدد١٣/٢٠٠١م،) ص ٢٧.

٢- مدونة الدراسة: ص٩٠.

من المؤلف لما تمتاز به المدينة، وهذه إشارة سلبية تؤكد على تشوُّه بيئة المدينة وقبحها، وقد نجح المؤلف في وضعها في قالبٍ ذكي، لتكون أبرز الصفات الذميمة التي تتمتعُ بها المدينة.

ومن ذلك حوار البطل مع زوجته زهرة الأهدل؛ حيث يقول: " **هذه أفضل ميزات المدينة، العزلة**". (١)

لم يقف الحوار عند معناه الظاهر فحسب، فالعزلة تعني انقطاع التواصل مع الآخرين، وعن المحيطين به، وتعني أيضًا الغربة والوحشة، وهذا أمرٌ سلبي مشوِّه لجماليات البيئة، ويفقد الاستمتاع بمظاهر الطبيعة، فالمدينة في نظر المؤلف تتجه نحو الفردانية، عكس القرية التي تتسم بالطابع الاجتماعي. كما تتجه نحو القبح لا الجمال.

ويعضد تلك النظرة المشوهة لبيئة المدينة، وصفه لها بالدم الفاسد في حوار البطل القروي مع ابنة عمه المديني، عندما قال: " **يا عمر أنت لم تفهم المدينة، هنا في المدن الكبيرة، مقام الرذائل والشهوات؛ لأن الذي يجري في عروق المدينة إنما هو دم فاسد، فابصق على المدن الكبرى؛ لأنها مزبلةٌ تتراكم فيها الأقذار، وارجع إلى السورجة**".(٢)

إنَّ هذا الوصف للمدينة جاء من ابنها الذي ينتمي إليها، ويعرف أسرارها ومكنوناتها، فقد وصفها بأنها مقام الرذائل والشهوات، والدم الفاسد، ومزبلة الأقذار، وهذا الوصف لم يكن شكلياً؛ بل تغلغل في الأعماق ليخرج لنا بأن المدينة قد انتهكت الطبيعة، وشوهت جماليات البيئة بأسرها، كتشويهها

---

١ – مدونة الدراسة: ص ١٧٦.

٢ – مدونة الدراسة: ص ١٧٧.

لأخلاق أبنائها، عندما دفعتهم إلى الرذائل والشهوات، فهي دم فاسد، والدم الفاسد لا فائدة منه؛ بل إن ضرره أقوى وأشد.

فالقارئ الناقد، يلحظ أن المدينة كانت تصطبغ غالباً بصبغة مشوهة وقبيحة، بيد أن ذلك لا ينكر وجود جماليات تتميز بها عن عالم القرية، مثل: وصف أبي جمال/عم البطل للمدينة في حواره مع عمر، عندما قال: " **يبدو له من حديث عمه أنه لاحظ الوجوم والدموع الحائرة في عينيه، حين سأله:**

- **هذه أول مرة تركب السيارة يا عمر؟**

- **لا. أحياناً نركب في طريق المدرسة.**

- **إذاً، هذه أول مرة تركبها إلى المدينة، ستعجبك المدينة، شوارع مسفلتة، وأنوار، وعمارات كبيرة، وتلفزيون، وسآخذك إلى السورجة في الإجازات**".[١]

صوّر السارد في النص السابق المدينة شكلياً، فرسم جمالياتها، فالشوارع مسفلتة، والأنوار مضيئة، والمباني كبيرة، وفيها وسائل ترفيه، فالوصف كان ظاهرياً جمالياً، ولم يتغلغل إلى الأعماق، وكأنه يؤكد على فكرة العزلة، وأن ليس لها إلا الظاهر.

وبمواصلة الحديث حول ثنائية القبح والجمال في المدينة نجد تدخلاً من الكاتب لرأي عمر عن المدينة، يقول السارد: " **هنا في المدينة الكبيرة شعر عمر بانه يمكن أن يعيش بسلام، ولكن هل يمكن الحكم على المدينة من**

١ – مدونة الدراسة: ص ٣١

خلال شهرين أحدهما شهر العسل، ولآخر قضاه في متابعة أخبار الحرب الأهلية بين اليمنين الشمالي والجنوبي التي انتهت بيمنٍ واحد". (١)

فالكاتب يختلف مع عمر حول رأيه عن أن العيش في المدينة يكون بسلام. وهذه إشارة واضحة وصريحة حول نظرته للمدينة فهي نظرة قبيحة، وكأنه يتعجب من رأي عمر حولها.

ومن الكل إلى الجزء نجد أن السارد يرصد في المدينة بعض السلوكيات الأخلاقية المشوة الموجودة في معاهدها وجامعاتها، يقول السارد: " **لقد صدمه كثيرٌ من زُملائه في المعهد وفي الجامعة، الذين كانوا محل ثقته، ثم اكتشف أنهم غارقون في مستنقع التعاطي الآسن. وبعد توالي الصدمات، أصبح أكثر حذرًا، فلم يعد يندفع في بناء العلاقات مع الآخرين، إلا بعد زمنٍ طويل، حتى صارت له سمة، لا يألف ولا يؤلف بسرعة، فقد سمع قصصًا كثيرة لأصدقاء، ذهبوا ضحايا صداقات مشبوهة، لا ذنب لهم فيها.**" (٢)

لقد ذكر السارد بعض السلوكيات الأخلاقية التي وجدت في المدينة مثل التعاطي، والخيانة بين الأصدقاء من خلال إقحامهم في أمور لا صلة لهم فيها. فهو بهذا الذكر يظهر قبح عالم المدينة.

كما يرى السارد أن المدينة –أيضًا– هي من جاءت بالتشدد الديني إلى القرية، يقول السارد: " **جاءت زوجة أبي عمر، تحمل أطباقًا فارغة، وهي ترتدي عباءة سوداء، وشالًا أسود رفعته عن وجهها عند دخولها، رحبت بعمر. عجب عمر للباسها فلم يعهد العباءة السوداء، وغطاء الوجه إلا في**

---

١ – مدونة الدراسة: ص ١٧٥

٢ – مدونة الدراسة: ١٢١–١٢٢

المدينة، فكيف وصلت إلى السورجة؟! قالت: نافع -جزاه الله خيرًا-، أحضر لجميع نساء السورجة عباءات وأغطية لوجهن على نفقة أحد المحسنين، لأنه حرام عينا الخروج من بيوتنا إلا بهذا اللباس الإسلامي".[١]

لقد صور الحوار السابق قضية التشدد في اللباس، وأرجعها إلى عالم المدينة فالقرية لم تألف مثل ذلك، وهذا الحوار هو تصويرُ للعلاقة القبيحة مع عالم المدينة.

لقد كانت هذه الصور التي ذكرتها الدراسة نموذج على البيئة الصناعية التي حفلت بها رواية جبل حالية، فكان للجمال في القرية حضور مختلف وأكثر رونقاً، مقارنة بالمدينة التي حفلت بحضور القبح فيها مرات عدة.

١ - مدونة الدراسة: ص ١١٣

الخاتمة

سعت هذه الدراسة إلى دراسة موضوع رواية "جبل حالية" لإبراهيم مضواح الألمعي، وكان مجال بحثها المقاربة الإيكولوجية لهذا الفن الروائي.

وقد توصلت الباحثة إلى مجموعة من النتائج المستقاة من واقع النص الروائي على النحو الآتي:

– يعدُّ النقد البيئي من المناهج الحداثية المعاصرة، التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، حيث يهدف إلى محاولة فهم العلاقة بين الطبيعة والأدب.

– يعدُّ الخطاب الروائي للكاتب إبراهيم مضواح الألمعي– موضع الدراسة– من أهم الخطابات التي اهتمت بالبيئة بكافة أشكالها اهتماماً واضحاً؛ حيث استطاعت أن تسيطر على تفكير الكاتب فكانت وسيلة لترسيخ فكرته ورؤيته انسجاماً مع مبادئ النقد الإيكولوجي.

–انسجمت عناصر الطبيعة مع عناصر السرد فكوَّنت فلسفةً نقديةً فاتنة؛ إذ لم تكن مجرد زخرفة خارجية لا قيمة لها؛ وتحديداً لعناصر الشخصية، والمكان، واللغة، فالشخصية والمكان ذابا في الطبيعة حتى بلغا ذروتهما من خلال مصطلح الأنسنة الذي يرتبط باللغة الشعرية ارتباطًا واضحًا.

–وظف الكاتب مصطلح الأنسنة على عناصر البيئة البيولوجية والصناعية معاً، وهذا أسهم في تقديم رؤيته الخاصة.

– اهتم الكاتب بعالم القرية أكثر من اهتمامه بعالم المدينة، فكانت الأولى منبعاً للصفاء والأصالة، بينما تخلفت الثانية عن ذلك في كثير من المواضع،

واتضح ذلك من خلال العلاقات التي قام عليها البحث، والتي تتمثل في علاقة الإنسان بالبيئة البيولوجية، وعلاقة الإنسان بالبيئة الصناعية.

-كشفت الثنائيات الضدية عن رؤية الكاتب وفلسفته الخاصة، التي حرص على إيصالها للمتلقي.

وبعد، فقد كانت هذه محاولة نقدية لرصد إيكولوجية النص الروائي التي قدر للباحثة التعرض لها في رواية "جبل حالية" لإبراهيم مضواح الألمعي، وأسال الله السداد في العمل والإخلاص في النية.

والله ولي التوفيق...

قائمة المصادر والمراجع

مدونة الدراسة:

- الألمعي، إبراهيم مضواح (٢٠١١م): **جبل حالية**، ط١، جداول للنشر والتوزيع، الكويت.

المراجع:

- جيرد، جيرار(٢٠٠٧م): **النقد البيئوي**، ترجمة: عزيز صبحي جابر، ط١، مشروع كلمة، أبو ظبي.

-الحفوظي، ريم محمد طيب (١٤٣٩هـ): **الدراما في الشعر -تقنيات الشكل ومسرحة القصيدة-للشاعر محمد مردان نموذجاً**، ط١، دار الخليج للنشر والتوزيع، الأردن.

- سويسي، نجاة (٢٠١١م): **رواية السيرة الذاتية في (مزاج مراهقة) لفضيلة الفاروق**، رسالة ماجستير، جامعة منتور قسنطينة، الجزائر.

- الغذامي، عبدالله (١٩٨٧م): **تشريح النص**، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

-أبو ملحة، محمد (٢٠١٥م): **السرد العالم الموازي**، ط١، الانتشار العربي، بيروت، نادي جدة الأدبي.

- النعمي، حسن (١٤٤٠هـ): **الأدب العربي الحديث نشأته وتطوره**، ط٣، خوارزم العلمية، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية.

- مايكل برانش، مايكل: **النقد الإيكولوجي**، ترجمة معين رومية، نوافذ، العدد ٣٥، جمادى الأولى١٤٢٨هـ/مايو٢٠٠٧م، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية.

المجلات المحكمة:

- حسين مجيد حسين(٢٠١٨م): **أنسنة المكان في رواية (هولير حبيبتي) لعبد الباقي يوسف**، مجلة قه لاى زانست العلمية، الجامعة اللبنانية الفرنسية، العراق، المجلد٣، العدد٤.

-محمد، داود (٢٠٠١م): **المدينة في الرواية الجزائرية الفضاء القسنطيني في رواية " الزلزال"**، مجلة إنسانيات، عدد١٣.

- السلطاني إيمان مطر، العلي، زياد طارق، الجنابي رواء جليل(٢٠١٩م): نسق **النسوية البيئية في رواية حديقة حياة للطيفة الدليمي**، مجلة الطريق للتربية والعلوم، المجلد٦، كانون الثاني.

المواقع الإلكترونية:

-محمد، سامح عبد السلام (٢٠١٣م): **علاقة الإنسان بالبيئة**، مقالة، شبكة الألوكة..https://www.alukah.not

- ويكيبيديا/الموسوعة الحرة، إبراهيم مضواح الألمعي.

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

فهرس المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٤٠٦٩
٢-	Abstract	٤٠٧٠
٣-	مقدمة	٤٠٧١
٤-	مدخل:	٤٠٧٤
٥-	المحور الأول: علاقة الإنسان بالبيئة البيولوجية:	٤٠٧٦
٦-	المحور الثاني: علاقة الإنسان بالبيئة الصناعية:	٤٠٩١
٧-	أولاً: ثنائية الجمال والقبح في عالم القرية:	٤٠٩١
٨-	ثانياً: ثنائية الجمال والقبح في عالم المدينة:	٤٠٩٧
٩-	الخاتمة	٤١٠٢
١٠-	قائمة المصادر والمراجع	٤١٠٤
١١-	فهرس المحتويات	٤١٠٦

تم بحمد الله